عمر الخيـــام
بين الحقيقة والاسطورة

للأستاذ السيد أحمد مصطفى الخطيب

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

الأسطورة الثالثة

لو قال لنا أحد الذين يؤثرون جانب الجدل العقيم واللجاجة المقوتة ، ما بالكم قد ملأتم الدنيا ضجيجاً وعجيجاً بتحدثكم عن الخيام ورباعياته ؛ إني لأتحداكم جميعا . هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . إنني أنكر أن تكون للخيام رباعية واحدة لا رباعيات تبلغ الألف والمائتين عدداً، وأرى كل ماتدعونه في هذا الخصوص ليس إلا محض وهم باطل لا يجاوز نطاق الحدس والتخمين ، فالخيام لم يترك وراءه ديوانا بخط يده ، ولم يشر إلى شعره في تآليفه العديدة ، ولم يملِ على أحد من تلامذته ما يسمى اليوم بالرباعيات ، كما أن (جهار مقاله) أقدم سفر تاريخي عثر عليه لمصنفه (نظامي عروضي سمرقندي) تلميذ الخيام الخاص لم يذكر ولا كلمة واحدة عن رباعيات أستاذه، برغم أنه زار قبره بعد وفاته ببضع سنوات فقط، وذكر أموراً في مؤلفه أقل أهمية وأشأنا بكثير من الرباعيات ..

إن جميع ما يدعى ويقال بهذا الصدد إن هو إلا أسطورة جميلة وتفكير شعري بديع نسجها الوهم وزينها الخيال ، فتزاتها منزلة غيرها من الأساطير المصطنعة التي لم تقم لها قائمة إلا بعد أن مرت على موت الشاعر عدة قرون

أجل ! ماذا يكون جوابنا إن جابهنا هـذا الجدلي اللجوج بمثل هذا المنطق الساخر العابث ، ثم ألح علينا في عناد وإصرار أن نثبت له إثباتاً لا يتطرق إليه أي شك أن للخيام رباعيات حقيقية نرضى عن نسبتها إليه أساليب التحقيق العلمي الدقيق في عصرنا الحديث هذا ..

في الحق أننا عاجزون تمام العجز عن أن نكيل لهذا المكابر الخبيث الصاع صاعين ومن توفيته حقه الكيل كيلين ، وأن نسخر منه بنفس الطريقة التي سخر بها هو منا ، وإن كنا نملك في الوقت نفسه أدلة وبراهين لا تقبل الدحض ، ونستطيع بعرضنا إياها عليه أن نجعله يخفف من غلوائه ويقلل من خيلائه ويرتد شيئا فشيئا إلى هدوء العقل واتزانه ..

فالثابت المؤكد حتى الآن — كما يدعي صاحبنا الجدلي — أن الخيام أهمل في حياته أن يكتب سيرة نفسه بقلمه ، أو أنه كتبها ولم تصل إلينا لامتداد يد الضياع إليها ، أو أنها لم تضع ولكنهـا في جهة مجهولة لم تتناولها يد المحققين بعد ، غير أنه ثابت ثبوتاً قاطعا أيضا أن الخيام لم يكتب في الفارسية من الشعر سوى الرباعيات وحدها ؛ أما هل جمع كل ما كتبه من هذه الرباعيات وضمها بين دفتي كتاب خاص بنفسه ، أو أملاها على أحد من طلابه ؛ فذلك ما نحن منه في ظلام دامس حتى الآن ، وأظن الأمر سيبقى كذلك إلى الأبد إلا إذا عثر على دليل مادي يقلب المسألة رأسا على عقب ويغير مجرى البحث تغييراً تاما في يوم من الأيام ..

إن أقدم نسخة للرباعيات بين أيدينا اليوم وهي الموسومة بـ (رسالة الرباعيات) يرجع تاريخ كتابتها إلى نحو ثلاثمائة عام تقريبا بعد موت الشاعر ، وقد عثر عليها في مكتبة بودلين بأكسفورد وتسمى بنسخة السر أوسلي ، وهي نسخة منقولة عن غيرها من النسخ وليست أصلا . أما من هو الناسخ الذي نقلها ؟ وعن أية نسخة نقلها ؟ وهل أن الرباعيات الواردة فيها والبالغ عددها ١٥٨ رباعية ؛ كلها للخيام ذاته أم أن هناك بينها الدخيلات والنحولات ؟ ثم كم عـدد أولئك في حالة افتراضنا اندساسها بين الرباعيات الأصيلة .. كل هذه أسئلة وعلامات استفهام تدور في أذهان الباحثين والمدققين منذ أن عرف الغرب شاعر الشرق ولكن بدون جدوى ، ويعز أن يعثر لها على جواب شاف يقطع الشك باليقين والحيرة بالاطمئنان ..

على أننا رغم كل هـذا يجب أن نعلم في الوقت نفسه أن المعلومات السابية الآنفة الذكر تملها علينا طبيعة النطاق المجرد فحسب ، وأن ثمة أموراً كثيرة نعلمها عن حياة هـذا الشاعر

وشخصيته وأخلاقه وبيئته وآثاره ومؤلفاته، كما أن هناك مؤرخين معروفين، وعلماء مشهورين، وفقهاء ومتصوفين ذائعي الصيت مرموق المقام تناولوا عدداً غير قليل من رباعيات الخيام في كتبهم ومصنفاتهم وهم معاصروه بالتعليقات المتنوعة، وناقشوها مناقشة فيها اللين والهوادة تارة، والعنف والقسوة تارة أخرى، فإذا جاز لنا أن نتشكك في صحة إسناد كل الرباعيات المتداولة إلى الخيام فإنه لا يجوز لنا إطلاقاً أن نتشكك في صحة نسبة بعضها إليه على الأقل.. ذلك البعض الذي يمثل آراء وأخلاق وشخصية وظروف بيئة الخيام التي نعرفها والتي يمكن اعتبارها في عداد الحقائق التاريخية التي لا تقبل أي جدل أو نقاش

إذن يظهر أن الألف والمائتين رباعية التي تطارد الخيام اليوم هنا وهناك في الشرق والغرب وتثير حوله طوفاناً من الضجيج والصخب، ويتجمع له الأنصار والأصدقاء، وتؤلب عليه الأعداء والناقمين؛ ليست سوى أسطورة ضخمة كثيرها من الأساطير، تقابلها حقيقة متواضعة تتمثل في عدد متواضع من الرباعيات معترف بها اعترافاً كاملاً ويبلغ الأربع والثمانين رباعية فقط، وذلك استناداً إلى أصدق وأحدث البحوث العلمية في هذا الشأن حتى يومنا هذا

الأسطورة الرابعة

لم نسمع أن شاعراً أوذي في سمعته بعد مونته كما أوذي الخيام أو أصابه من الاتهامات الكاذبة والافتراءات المدبرة ما أصاب هذا العبقري العظيم والأديب الفحل والنابغة الأوحد

ولو سألنا أي واحد من هؤلاء الذين سمعوا عن الخيام ولم يحققوا، وقرأوا عنه ولم يتثبتوا، أن يصف لنا شاعر الرباعيات كما يتصوره هو أو كما يصوره له الوهم بالأحرى، لما تعدى نطاق وصفه إياه عن أن الخيام كان شاعراً عابثاً لاهياً، خليعاً فاجراً، يقضي وقته متنقلاً من حانة إلى أخرى، نديمه الكأس ليل نهار، لا يفيق من سكرة إلا ليستسلم إلى أخرى؛ ثم هو على ذلك ملحد جاحد أعلن حربا شعواء على الأديان كلها، وهاجم المتعبدين والزهاد، ورسالته في الحياة: لا تفارق الخمرة حتى تموت

هذه هي الصورة الشوهاء المزيفة التي يتخيلها عدد كبير من الناس ويرسمونها على أنها صورة حقيقية للخيام

لقد كان الخيام قبل كل شيء فيلسوفاً نزيهاً وأديباً عفيفاً، يزينه الوقار ويسمو به جلال العلم على أقرانه من أهل زمانه.. وكان إلى ذلك ذكي الفؤاد متوقد القريحة، صاحب رأي؛ يجهر بالحق ويحارب الشعوذة أينما وجدت.. فلهذا جاهره بالخصومة فريق من رعاة الصوفية في زمانه، كانوا يتخذون الدين وسيلة لاغاية، فأطلقوا ألسنتهم عليه ودأبوا على نشر كل باطل عنه وإلصاق كل تهمة كاذبة به حتى لقد رموه بالكفر والإلحاد أيضاً، وكل ذلك لأنه كان يكشف عن رياهم ونفاقهم، ويعلن عن جهلهم وتعصبهم دون خوف ولا حذر

قال عنه شمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري في كتابه الموسوم بـ (نزهة الأرواح وروضة الأرواح في تواريخ الحكماء المتقدمين والمتأخرين) الذي ألفه في القرن السادس الهجري ما يلي بحروفه:

(كان الخيام عالماً بالفقه واللغة والتواريخ ... دخل ذات يوم على الوزير عبد الرازق وكان عنده إمام القراء أبو الحسن الغزالي وكانا يتكلمان في اختلاف القراء في آية.. فقال الوزير: على الخبير سقطنا. ثم سأل الخيام فذكر اختلاف القراء وعلل كل واحد منها وذكر الشواذ وعللها وفضل وجهاً واحداً. فقال الغزالي: كثر الله أمثالك في العلماء فإني ما ظننت أن أحداً يحفظ ذلك من القراء فضلاً عن واحد من الحكماء

ودخل عليه حجة الإسلام الغزالي يوماً وسأله مسألة فلكية فأطال عمر الخيام الإيضاح حتى أذن الظهر.. انتهى كلام الشهرزوري)

ومن بين مصنفات الخيام العديدة كتابه (رسالة في الجبر والمقابلة) كتبها في العربية وترجمت إلى الفرنسية وطبعت في باريس سنة ١٨٥١

٢ — كان الخيام ينزل في الرتبة الأولى من أهل زمانه، يتسابق إلى خطب وده الوزراء؛ وكان الملك سينجر يجلسه على العرش بجانبه توقيراً له، وكان متعبداً زاهداً منصرفاً إلى العلوم والتدريس، نافضاً يده من الأمور الدنيوية التي تتكالب

عليها الأطماع وتصطرع دونها الأحقاد ، وكان يلقب بحجة الحق الإمام عمر

٣ — لم يثبت إطلاقا وعلى أى وجه أن الخيام قد ذاق الخمرة طوال حياته ولو مرة واحدة

٤ — كان الخيام طبيباً بارعا معروفا له المحل الأول بين أطباء عصره المشهورين

٥ — كان مدرساً جليل القدر فى نيسابور التى أنجبت عدداً كبيرا من علماء الإسلام فى العلم والأدب

٦ — كان يكتب رباعياته من حين إلى حين فى مجالس سمره وحديثه وبين خاصته ، وكانت هذه الرباعيات تنتقل من يد إلى يد كباقة من الزهر تفوح بالعطر وتعبق بالشذا ، فيدونها هذا وذاك من أصدقائه وتلامذته كتذكار أو كهدية نادرة من العالم الأكبر ، فى حواشى كتبهم وفى بطون كراريسهم

٧ — كان وصف الخمرة والإغراق فى التغنى بمزاياها (مادة) ذلك العصر بالنسبة للأدباء الفرس كما كان التغنى بـ (ليلى) و (ديار ليلى) التقليد العصرى السائد فى العهد الأموى بالنسبة للشعراء العرب

وكفى الخيام دليلا على علو منزلته وسمو مقامه ، وجليل قدره هذه الأبيات التى وجهها إليه فى مستهل إحدى رسائله الإمام أبو النصر محمد بن عبد الرحيم العتبى قاضى الديار الفارسية آنذاك وتلميذ الشيخ الرئيس أبى على بن سيناه

قال الإمام أبو نصر :

إن كنت ترعين بارياح الصبا ذمى فاقرى السلام على العلامة الخيمى

يومى لديه تراب الأرض خاضعـــة

خضوع من يجتـدى جدوى من الحكم

فهو الحكيم الذى تسقى سحائبه ماء الحياة رفات الأعظم الرمم

هذا هو الخيام الحقيق لا الأسطورى ، الخيام المجرد عن تزاويق الباطل وبهارجه ، العارى من ثوب البهتان وأصباغه

نماذج من شعر الخيام

ليس شعر الخيام كله مقصوراً على الرباعيات وحدها ، بل الثابت أنه كان يقرض الشعر فى اللغة العربية أيضا ، وله فى هذا المجال أبيات فريدة وصلت إلينا تدل على علو كعبه ، وسعة اطلاعه ورسوخ قدمه فى العربية وفنون بلاغتها ، حتى ليستحق أن يعد بحق قرناً لأعظم الشعراء العرب فى جميع العصور

فلنستمع إليه الآن فى هذه القطعة التى نظمها فى الفخر على طريقة أبى العلاء المعرى فى قصيدته المشهورة (ألا فى سبيل المجد ما أنا فاعل)

قال الخيام :

إذا قنعت نفسى بميسور بلغة يحصلها بالكد كفى وساعدى

أمنت تصاريف الحوادث كلها فكن يازمانى موعدى أو مواعدى

ولى فوق هام النيرين منازل وفوق مناط الفرقدين مصاعدى

أليس قضى الأفلاك فى دورها بأن تعيد إلى نحس جميع المساعد

متى مادنت دنياك كانت مصيبة فوا عجبا من ذا القريب المباعد

إذا كان محصول الحياة منية فسيان حالا كل ساع وقاعد

ويقول فى قطعة أخرى :

سبقت العالمين إلى المعالى بصائب فكرة وعلو همه

فلاح بحكمتى نور الهدى فى ليال فى الضلالة مدلهمه

يريد الجاحدون ليطفئوها ويأبى الله إلا أن يتمه

نكتفى بهذا القدر الآن من شعره العربى ونتنقل إلى رباعياته نفسها لنضع أمامك بعضاً منها تمثل الخيام أصدق تمثيل كما نعتقد فى تفكيره وآرائه ، وتعبر أدق تعبير عن نظراته التى كان ينظر بها إلى الحيـــاة

فهاهو ذا الآن يتحسر على فوات الشباب وذهاب ربيع العمر فى رباعية هى الدرة اللامعة والجوهرة الثمينة فى تاج الرباعيات الخيامية :

أفسوس كه نامه : جوانى طى شد

وين تازه بهار شادمانى طى شد

أن مرغ طرب كه نام أو بود شباب

فرياد ندانم كه كى أمد كى شد

الترجمة الحازنى من الإنكليزية

طوت يد الأقدار سفر الشباب وصوحت تلك الغصون الرطاب

وقد شدا طير الصبا واختفى متى أتى ؟ يالهفى ! أين غاب ؟

وهنا نراه يطالب الباري سبحانه وتعالى بحقه في دخول الجنة:

من بنده خاصم رضای تو کجاست تا ربك دلم نور صفای تو کجاست
مارا تو بهشت اگر بطاعت بخشی
آن بیع بود لطف عطای تو کجاست

الترجمة للزهاوي عن الفارسية

أنا عاص فأين منك الرضاء أنا داج فأين منك الضياء
إنما وقفك الجنان على الطاعة بيع فأين منك العطاء

وهنا يقف حائرا مشدوها أمام لغز الحياة وأسرارها السرمدية

قومي متفكر ند در مذهب دين جمعي متحيرند در شك يقين
تا كآه منادي در آيد زكمين كي بيخبرمه داه نه آنت نه أين

الترجمة للزهاوي :

فئة في اليقين والشك هاموا وفريق بالدين راموا لواذاً
وإذا صائح يقول مشيراً ليس ذاكم هو الطريق ولاذا

الترجمة للبستاني عن الفرنسية والإنكليزية .

وهنا تقلقه فكرة العذاب في يوم القيامة فيقول :

حين يارب كنت تجبل طيني عالما كنت أنت علم اليقين
كل امرئ وكنه سري الدفين

كل ما جئته فنك بحكم منك روحي ومنك لحمي وعظمي
فلماذا يوم القيامة في النار أعاني الآلام والأهوال

وهنا تتمثل ثورته على الظلم واحتقاره العادة :

وأجبني ووافني لاعتزال وابتعاد عن محض قيل وقال
رب قفر من المظالم خال ليس فيه عبد ولا سلطان
هو عندي المكان نعم المكان

رب كهف تأويه نفس أبي فاق قصراً طالت ذراه السحابا

وهنا : نحن من التراب وإلى التراب :

وتفور الأزهار ياذا الحبيب من ثغور سناؤها محجوب
لك قلب وفي الأديم قلوب

ضجة اللطف فوق هذا النبات فهو نام من أكبد النائحات
في مهود فيها السبات عميق لا مفيق منه بهن أهابا

وهنا يخاطب جاره الخزاف

أمس أبصرت جارنا الخزافا يجبل الطين كيف شاء اعتسافا
ويكيل القدار منه جزافا
وكأني أسمعت بين يديه صوت ذات مظلومة تشتكيه
آه رفقا فأنت طين رماد أيها المرء لا تسمني العذابا

وهنا يودع الحياة بقلب دام ونفس تذوب حسرات :

يا نديمي قد آن موت النديم
فاذكراني ذكرى الصديق القديم
وابكياني بدمع بنت الكروم

وبكأس الرحيق قف فوق قبري واسكب الخمر فوق عشب وزهر
فرفاقي إذ ذاك زهر وعشب وأنا الشيء كان كوناً وحالا

وأخيراً تراه يقنت لربه ويستغفر ويقول :

رب رحماك ما كسبت ثوابا لا ولا كنت مستحقا عقابا
إنما قلت ما رأيت صوابا وعزائي الجميل كان الجبابا
وكفاني التوحيد ذخراً فإني لم أعدد في ديني الأربابا

السيد أحمد مصطفى الخطيب

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى والطبعة الأولى للرحلات الثانية من كتاب

رحلات

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

سفير مصر في الباكستان

ثمن الأول ثلاثون قرشا والثاني أربعون قرشا عدا أجرة البريد

والمجلدان يطلبان من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة